(١٩) سورة مريم مكية وآياتها ثمان وتسعون

بسم الله الرحمن الرحيم

كهيعص ①

وهى قوله (أنما إلهكم إله واحد) . (والثانى) أن كون الإله تعالى (إلهاً واحداً) يمكن إثباته بالدلائل السمعية ، وقد قررنا هذين المطلوبين فى سائر السور بالوجوه القوية ، ثم قال : (فمن كان يرجو لقاء ربه) والرجاء هو ظن المنافع الواصلة اليه والخوف ظن المضار الواصلة اليه ، وأصحابنا حملوا لقاء الرب على رؤيته والمعتزلة حملوه على لقاء ثواب الله وهذه المناظرة قد تقدمت والعجب أنه تعالى أورد فى آخر هذه السورة ما يدل على حصول رؤية الله فى ثلاث آيات : (أولها) قوله (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه) . (وثانيها) قوله (كانت لهم جنات الفردوس نزلا) (وثالثها) قوله (فمن كان يرجو لقاء ربه) ولا بيان أقوى من ذلك ثم قال (فليعمل عملا صالحاً) أى من حصل له رجاء لقاء الله فليشتغل بالعمل الصالح ، ولما كان العمل الصالح قد يؤتى به لله وقد يؤتى به للرياء والسمعة لاجرم اعتبر فيه قيدان : أن يؤتى به لله ، وأن يكون مبرأ عن جهات الشرك ، فقال (ولايشرك بعبادة ربه أحدا) . قيل نزلت هذه الآية فى جندب بن زهير قال لرسول الله ﷺ «إنى أعمل العمل لله تعالى فاذا اطلع عليه أحد سرنى» فقال عليه الصلاة والسلام «إن الله لايقبل ماشورك فيه» وروى أيضاً أنه قال له «لك أجران أجر السر وأجر العلانية» فالرواية الأولى محمولة على ما إذا قصد بعمله الرياء والسمعة ، والرواية الثانية محمولة على ما إذا قصد أن يقتدى به ، والمقام الأول مقام المبتدئين ، والمقام الثانى مقام الكاملين والحمد لله رب العالمين ، والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

قال المصنف رضى الله عنه تم تفسير هذه السورة يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر صفر سنة اثنتين وستمائة فى بلدة غزنين ؛ ونسأل الله أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ، أن يخصنا بالمغفرة والفضل فى يوم الدين ، إنه ذو الفضل العظيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كهيعص ﴾ قبل الخوض فى القراءات لا بد من مقدمات ثلاثة (المقدمة الأولى)

أن حروف المعجم على نوعين ثنائى وثلاثى ، وقد جرت عادة العرب أن ينطقوا بالثنائيات مقطوعة ممالة فيقولوا با تا ثا وكذلك أمثالها ، وأن ينطقوا بالثلاثيات التى فى وسطها الألف مفتوحة مشبعة فيقولوا دال ذال صاد ضاد وكذلك أشكالها ، أما الزاى وحده من بين حروف المعجم فمعتاد فيه الأمران ، فان من أظهر ياءه فى النطق حتى يصير ثلاثياً لم يمله ، ومن لم يظهر ياءه فى النطق حتى يشبه الثنائى يمله (أما المقدمة الثانية) ينبغى أن يعلم أن إشباع الفتحة فى جميع المواضع أصل والإمالة فرع عليه ولهذا يجوز إشباع كل ممال ولا يجوز إمالة كل مشبع من الفتحات (المقدمة الثالثة) للقراء فى القراءات المخصوصة بهذا الموضع ثلاثة طرق (أحدها) أن يتمسكوا بالأصل وهو إشباع فتحة الهاء والياء (وثانيها) أن يميلوا الهاء والياء (وثالثها) أن يجمعوا بين الأصل والفرع فيقع الاختلاف بين الهاء والياء فيفتحوا أحدهما أيهما كان ويكسروا الآخر ولهم فى السبب الموجب لهذا الاختلاف قولان (الأول) أن الفتحة المشبعة أصل والإمالة فرع مشهور كثير الاستعمال فأشبع أحدهما وأميل الآخر ليكون جامعاً لمراعاة الأصل والفرع وهو أحسن من مراعاة أحدهما وتضييع الآخر (القول الثانى) أن الثنائية من حروف المعجم إذا كانت مقطوعة كانت بالإمالة ، وإذا كانت موصولة كانت بالإشباع وها ويا فى قوله تعالى (كهيعص) مقطوعان فى اللفظ موصولان فى الخط فأميل أحدهما وأشبع الآخر ليكون كلا الجانبين مرعيا جانب القطع اللفظى وجانب الوصل الخطى ، إذا عرفت هذا فنقول فيه قراءات (إحداها) وهى القراءة المعروفة فيه فتحة الهاء والياء جميعا (وثانيها) كسر الهاء وفتح الياء وهى قراءة أبى عمرو وابن مبادر (١) والقطعى عن أيوب ، وإنما كسروا الهاء دون الياء ليكون فرقا بينه وبين الهاء الذى للتنبيه فانه لا يكسر قط (وثالثها) فتح الهاء وكسر الياء وهو قراءة حمزة والأعمش وطلحة والضحاك عن عاصم ، وإنما كسروا الياء دون الهاء ، لأن الياء أخت الكسرة وإعطاء الكسرة أختها أولى من إعطائها الى أجنبية مفتوحة للمناسبة (ورابعها) إمالتهما جميعاً وهو قراءة الكسائى والمفضل ويحيى عن عاصم والوليد بن أسلم عن ابن عامر والزهرى وابن جرير وإنما أمالوهما للوجهين المذكورين فى إمالة الهاء وإمالة الياء (وخامسها) قراءة الحسن وهى ضم الهاء وفتح الياء ، وعنه أيضاً فتح الهاء وضم الياء ، وروى صاحب الكشاف عن الحسن بضمهما ، فقيل له لم تثبت هذه الرواية عن الحسن لأنه أورد ابن جنى فى كتاب المكتسب (٢) أن قراءة الحسن ضم أحدهما وفتح الآخر لا على التعيين ، وقال بعضهم إنما أقدم الحسن على ضم أحدهما لا على التعيين لأنه تصور أن عين الفعل فى الهاء والياء ألف منقلب عن الواو كالدار والمال ، وذلك لأن هذه الألفات وإن كانت مجهولة لأنها لا اشتقاق لها فانها تحمل على ما هو مشابه لها فى اللفظ . والألف إذا وقع عيناً فالواجب أن يعتقد أنه منقلب عن الواو لأن الغالب

(١) هكذا فى الأصول (ابن مبادر) ولم نره فى القراء ولعله محرف عن ابن مناذر وهو مما سمت به العرب

(٢) الكتاب المشهور لابن جنى اسمه (المحتسب) فلعل له كتاباً آخر اسمه المكتسب أو لعله تحريف له

ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾

فى اللغة ذلك فلما تصور الحسن أن ألف الهاء والياء منقلب عن الواو جعله فى حكم الواو وضم ما قبله لأن الواو أخت الضمة (وسادسها) ها يا باشمامهما شيئاً من الضمة .

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو جعفر كهيعص يفصل الحروف بعضها من بعض بأدنى سكتة مع إظهار نون العين وباقى القراء يصلون الحروف بعضها ببعض ويخفون النون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القراءة المعروفة صاد ، ذكر بالادغام وعن عاصم ويعقوب بالإظهار

﴿ البحث الثانى ﴾ المذاهب المذكورة فى هذه الفواتح قد تقدمت لكن الذى يختص بهذا الموضع ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قوله تعالى كهيعص ثناء من الله على نفسه ، فمن الكاف وصفه بأنه كاف ومن الهاء هاد ومن العين عالم ومن الصاد صادق ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أيضاً أنه حمل الكاف على الكبير والكريم ، ويحكى أيضاً عنه أنه حمل الياء على الكريم مرة وعلى الحكيم أخرى ، وعن الربيع بن أنس فى الياء أنه من مجير ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى العين أنه من عزيز ومن عدل ، وهذه الأقوال ليست قوية لما بينا أنه لايجوز من الله تعالى أن يودع كتابه مالا تدل عليه اللغة لا بالحقيقة ولا بالمجاز لأنا إن جوزنا ذلك فتح علينا قول من يزعم أن لكل ظاهر باطناً ، واللغة لاتدل على ماذكروه فانه ليست دلالة الكاف أولى من دلالته على الكريم أو الكبير أو على اسم آخر من أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم أو الملائكة أو الجنة أو النار فيكون حمله على بعضها دون البعض تحكما لاتدل عليه اللغة أصلا .

قوله تعالى : ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى لفظة ذكر أربع قراءات صيغة المصدر أو الماضى مخففة أو مشددة أو الأمر ، أما صيغة المصدر فلا بد فيها من كسر رحمة ربك على الإضافة ثم فيها ثلاثة أوجه : (أحدها) نصب الدال من عبده والهمزة من زكرياء وهو المشهور (وثانيها) برفعهما والمعنى وتلك الرحمة هى عبده زكرياء عن ابن عامر (وثالثها) بنصب الأول وبرفع الثانى والمعنى رحمة ربك عبده وهو زكرياء . وأما صيغة الماضى بالتشديد فلا بد فيها من نصب رحمة . وأما صيغة الماضى بالتخفيف ففيها وجهان (أحدهما) رفع الباء من ربك والمعنى ذكر ربك عبده زكرياء (وثانيها) نصب الباء من ربك والرفع فى عبده زكرياء وذلك بتقديم المفعول على الفاعل وهاتان القراءتان للكلبى ، وأما صيغة الأمر فلا بد من نصب رحمة وهى قراءة ابن عباس . واعلم أن على تقدير جعله صيغة المصدر والماضى يكون التقدير هذا المتلو من القرآن ذكر رحمة ربك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ يحتمل أن يكون المراد من قوله رحمة ربك أعنى عبده زكرياء ثم فى كونه رحمة وجهان (أحدهما) أن يكون رحمة على أمته لأنه هداهم إلى الإيمان والطاعات (والآخر) أن

إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

يكون رحمة على نبينا محمد ﷺ وعلى أمة محمد لأن الله تعالى لما شرح لمحمد ﷺ طريقه فى الإخلاص والابتهال فى جميع الأمور إلى الله تعالى صار ذلك لفظاً داعياً له ولأمته إلى تلك الطريقة فكان زكرياء رحمة ، ويحتمل أن يكون المراد أن هذه السورة فيها ذكر الرحمة التى رحم بها عبده زكرياء .

قوله تعالى ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ راعى سنة الله فى إخفاء دعوته لأن الجهر والإخفاء عند الله سيان فكان الإخفاء أولى لأنه أبعد عن الرياء وأدخل فى الإخلاص (وثانيها) أخفاه لئلا يلام على طلب الولد فى زمان الشيخوخة (وثالثها) أسره من مواليه الذين خافهم (ورابعها) خفى صوته لضعفه وهرمه كما جاء فى صفة الشيخ صوته خفات وسمعه تارات ، فان قيل من شرط النداء الجهر فكيف الجمع بين كونه نداء وخفياً ، والجواب من وجهين (الأول) أنه أتى بأقصى ماقدر عليه من رفع الصوت إلا أن الصوت كان ضعيفا لنهاية الضعف بسبب الكبر فكان نداء نظراً إلى قصده وخفياً نظراً إلى الواقع (الثانى) أنه دعا فى الصلاة لأن الله تعالى أجابه فى الصلاة لقوله تعالى (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب إن الله يبشرك بيحيى) فكون الإجابة فى الصلاة يدل على كون الدعاء فى الصلاة فوجب أن يكون النداء فيها خفياً .

قوله تعالى : ﴿ قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً ، وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً ، يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً ﴾ القراءة فيها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرئ (وهن) بالحركات الثلاث

﴿ المسألة الثانية ﴾ إدغام السين فى الشين [من الرأس شيباً] عن أبى عمرو

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (وإنى خفت الموالى) بفتح الياء وعن الزهرى باسكان الياء من الموالى وقرأ عثمان وعلى بن الحسين ومحمد بن على وسعيد بن جبير وزيد بن ثابت وابن عباس خفت بفتح الخاء والفاء مشددة وكسر التاء وهذا يدل على معنيين (أحدهما) أن يكون ورائى بمعنى بعدى والمعنى

أنهم قلوا وعجزوا عن إقامة الدين بعده فسأل ربه تقويتهم بولى يرزقه (والثانى) أن يكون بمعنى قدامى والمعنى أنهم خفوا قدامه ودرجوا ولم يبق من به تقو واعتضاد .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ القراءة المعروفة (من ورائى) بهمزة مكسورة بعدها ياءساكنة وعن حميد ابن مقسم كذلك لكن بفتح الياء وقرأ ابن كثير (وراى) كعصاى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى يرثنى ويرث وجوه(أحدها) القراءة المعروفة بالرفع فيهما صفة(وثانيها) وهى قراءة أبى عمرو والكسائى والزهرى والأعمش وطلحة بالجزم فيهما جواباً للدعاء (وثالثها) عن على ابن أبى طالب وابن عباس وجعفر بن محمد والحسن وقتادة (يرثنى) جزم وارث بوزن فاعل (ورابعها) عن ابن عباس (يرثنى) وارث من آل يعقوب (وخامسها) عن الجحدرى (ويرث) تصغير وارث على وزن أفيعل (اللغة) الوهن ضعف القوة قال فى الكشاف شبه الشيب بشواظ النار فى بياضه وانارته وانتشاره فى الشعر وفشوه فيه وأخذه كل مأخذ كاشتعال النار ثم أخرجه مخرج الاستعارة ثم أسند الاشتعال الى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس وأخرج الشيب مميزاً ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب انه رأس زكريا فمن ثم فصحت هذه الجملة ، وأما الدعاء فطلب الفعل ومقابله الإجابة كما أن مقابل الأمر الطاعة ، وأما أصل التركيب فى (ولى(١)) فيدل على معنى القرب والدنو يقال وليته أليه ولياً أى دنوت وأوليته أدنيته منه وتباعد ما بعده وولى ومنه قول ساعدة [ابن جؤية] :

وعدت عواد دون وليك تشغب

وكل مما يليك وجلست مما يليه ومنه الولى وهو المطر الذى يلى الوسمى ، والولية البرذعة لأنها تلى ظهر الدابة وولى اليتيم والقتيل وولى البلد لأن من تولى أمراً فقد قرب منه ، وقوله تعالى (فول وجهك شطر المسجد الحرام) من قولهم ولاه بركنه أى جعله مما يليه ، وأما ولى عنى إذا أدبر فهو من باب تثقيل الحشو للسلب وقولهم فلان أولى من فلان أى أحق أفعل التفضيل من الوالى أو الولى كالأدنى والأقرب من الدانى والقريب وفيه معنى القرب أيضاً لأن من كان أحق بالشىء كان أقرب اليه والمولى اسم لموضع الولى كالمرمى والمبنى اسم لموضع والمرمى والبناء ، وأما العاقر فهى التى لا تلد والعقر فى اللغة الجرح ومنه أخذ العاقر لأنه نقص أصل الخلقة وعقرت الفرس بالسيف إذا ضربت قوائمه ، وأما الآل فهم خاصة الرجل الذين يؤول أمرهم اليه ثم قد يؤول أمرهم اليه للقرابة تارة وللصحبة أخرى كآل فرعون وللموافقة فى الدين كآل النبى صلى الله عليه وسلم واعلم أن زكرياء عليه السلام قدم على السؤال أموراً ثلاثة : (أحدها) كونه ضعيفاً (والثانى) أن الله تعالى ما رد دعاءه البتة (والثالث) كون المطلوب بالدعاء سببا للمنفعة فى الدين ثم بعد تقرير هذه الأمور الثلاثة صرح بالسؤال (أما المقام الأول) وهو كونه ضعيفا فأثر الضعف ،

(١) التثقيل هنا التشديد . والحشو هنا وسط الكلمة . والسلب هنا معناه الضد والمعنى أنه شدد اللام من ولى لفهم الضد فان (ولى) مكسورة اللام مخففة معناها أقبل و (ولى) مفتوحة اللام مشددة معناها أدبر والادبار ضد الاقبال ، وهذا معنى تثقيل الحشو للسلب والله أعلم

إما أن يظهر فى الباطن أو فى الظاهر ، والضعف الذى يظهر فى الباطن يكون أقوى مما ظهر فى الظاهر فلهذا السبب ابتدأ ببيان الضعف الذى فى الباطن وهو قوله (وهن العظم منى) وتقريره هو أن العظام أصلب الأعضاء التى فى البدن وجعلت كذلك لمنفعتين : (إحداهما) لأن تكون أساساً وعمداً يعتمد عليها سائر الأعضاء الآخر إذ كانت الأعضاء كلها موضوعة على العظام والحامل يجب أن يكون أقوى من المحمول (والثانية) أنه احتيج اليها فى بعض المواضع لأن تكون جنة يقوى بها ما سواها من الأعضاء بمنزلة قحف الرأس وعظام الصدر ، وما كان كذلك فيجب أن يكون صلباً ليكون صبورا على ملاقاة الآفات بعيدا من القبول لها إذا ثبت هذا فنقول إذا كان العظم أصلب الأعضاء فمتى وصل الأمر إلى ضعفها كان ضعف ماعداها مع رخاوتها أولى ، ولأن العظم إذا كان حاملا لسائر الأعضاء كان تطرق الضعف إلى الحامل موجباً لتطرقه إلى المحمول فلهذا السبب خص العظم بالوهن من بين سائر الأعضاء وأما أثر الضعف فى الظاهر فذلك استيلاء الشيب على الرأس فثبت أن هذا الكلام يدل على استيلاء الضعف على الباطن والظاهر وذلك مما يزيد الدعاء توكيداً لما فيه من الارتكان على حول الله وقوته والتبرى عن الأسباب الظاهرة (المقام الثانى) أنه ماكان مردود الدعاء البتة ووجه التوسل به من وجهين (أحدهما) ماروى أن محتاجاً سأل واحداً من الأكابر وقال أنا الذى أحسنت إلى وقت كذا ، فقال مرحباً بمن توسل بنا إلينا ثم قضى حاجته . وذلك أنه إذا قبله أولا فلو أنه رده ثانيا لكان الرد محبطاً للأنعام الأول والمنعم لايسعى فى إحباط انعامه (والثانى) وهو أن مخالفة العادة شاقة على النفس فاذا تعود الإنسان إجابة الدعاء فلو صار مردوداً بعد ذلك لكان فى غاية المشقة ولأن الجفاء ممن يتوقع منه الإنعام يكون أشق فقال زكرياء عليه السلام إنك مارددتنى فى أول الأمر مع أنى ماتعودت لطفك وكنت قوى البدن قوى القلب فلو رددتنى الآن بعد ماعودتنى القبول مع نهاية ضعفى لكان ذلك بالغاً إلى الغاية القصوى فى ألم القلب ، واعلم أن العرب تقول سعد فلان بحاجته إذا ظفر بها وشقى بها إذا خاب ولم ينلها ومعنى بدعائك أى بدعائى إياك فان الفعل قد يضاف إلى الفاعل تارة وإلى المفعول أخرى (المقام الثالث) بيان كون المطلوب منتفعاً به فى الدين وهو قوله (وإنى خفت الموالى من ورائى) وفيه أبحاث (الأول) قال ابن عباس والحسن إنى خفت الموالى أى الورثة من بعدى وعن مجاهد العصبة وعن أبى صالح الكلالة وعن الأصم بنو العم وهم الذين يلونه فى النسب وعن أبى مسلم المولى يراد به الناصر وابن العم والمالك والصاحب وهو ههنا من يقوم بميراثه مقام الولد ، والمختار أن المراد من الموالى الذين يخلفون بعده إما فى السياسة أو فى المال الذى كان له أو فى القيام بأمر الدين فقد كانت العادة جارية أن كل من كان إلى صاحب الشرع أقرب فانه كان متعيناً فى الحياة (الثانى) اختلفوا فى خوفه من الموالى فقال بعضهم خافهم على إفساد الدين ، وقال بعضهم بل خاف أن ينتهى أمره اليهم بعد موته فى مال وغيره مع أنه عرف من حالهم قصورهم فى

العلم والقدرة عن القيام بذلك المنصب ، وفيه قول ثالث وهو أنه يحتمل أن يكون الله تعالى قد أعلمه أنه لم يبق من أنبياء بنى إسرائيل نبي له أب إلا واحد فخاف أن يكون ذلك من بنى عمه إذ لم يكن له ولد فسأل الله تعالى أن يهب له ولداً يكون هو ذلك النبي ، وذلك يقتضى أن يكون خائفاً من أمر يهتم بمثله الأنبياء وإن لم يدل على تفصيل ذلك . ولا يمتنع أن زكرياء كان اليه مع النبوة السياسة من جهة الملك وما يتصل بالإمامة فخاف منهم بعده على أحدهما أو عليهما .أما قوله (وإنى خفت) فهو وإن خرج على لفظ الماضى لكنه يفيد أنه فى المستقبل أيضاً ، كذلك يقول الرجل قد خفت أن يكون كذا وخشيت أن يكون كذا أى أنا خائف لا يريد أنه قد زال الخوف عنه وهكذا قوله (وكانت امرأتى عاقراً) أى أنها عاقر فى الحال وذلك لأن العاقر لا تحول ولوداً فى العادة ففى الإخبار عنه بلفظ الماضى إعلام بتقادم العهد فى ذلك وغرض زكرياء من هذا الكلام بيان استبعاد حصول الولد فكان إيراده بلفظ الماضى أقوى وإلى هذا يرجع الأمر فى قوله وإنى خفت الموالى من ورائى لأنه إنما قصد به الإخبار وعن تقادم الخوف ثم استغنى بدلالة الحال وما يوجب مسألة الوارث وإظهار الحاجة عن الإخبار بوجود الخوف فى الحال وأيضاً فقد يوضع الماضى مكان المستقبل وبالعكس قال الله تعالى (وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس) والله أعلم وأما قوله من ورائى ففيه قولان (الأول) قال أبو عبيدة أى قدامى وبين يدى وقال آخرون أى بعد موتى وكلاهما محتمل فان قيل كيف خافهم من بعده وكيف علم أنهم يبقون بعده فضلا من أن يخاف شرهم ؟ قلنا إن ذلك قد يعرف بالأمارات والظن وذلك كاف فى حصول الخوف فربما عرف ببعض الإمارات استمرارهم على عادتهم فى الفساد والشر واختلف فى تفسير قوله (فهب لى من لدنك ولياً) فالأكثرون على أنه طلب الولد وقال آخرون بل طلب من يقوم مقامه ولداً كان أو غيره والأقرب هو الأول لثلاثة أوجه (الأول) قوله تعالى فى سورة آل عمران حكاية عنه (قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة) (والثانى) قوله فى هذه السورة (هب لى من لدنك ولياً يرثنى ويرث من آل يعقوب) (والثالث) قوله تعالى فى سورة الأنبياء (وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً) وهذا يدل على أنه سأل الولد لأنه قد أخبر فى سورة مريم أن له موالى وأنه غير منفرد عن الورثة وهذا وإن أمكن حمله على وارث يصلح أن يقوم مقامه لكن حمله على الولد أظهر واحتج أصحاب القول الثالث بأنه لما بشر بالولد استعظم على سبيل التعجب فقال أنى يكون لى غلام ولو كان دعاؤه لأجل الولد لما استعظم ذلك (الجواب) أنه عليه السلام سأل عما يوهب له أيوهب له وهو وامرأته على هيئتهما أو يوهب بأن يحولا شابين يكون لمثلهما ولد ؟ وهذا يحكى عن الحسن وقال غيره إن قول زكرياء عليه السلام فى الدعاء (وكانت امرأتى عاقراً) إنما هو على معنى مسألته ولداً من غيرها أو منها بأن يصلحها الله للولد فكأنه عليه السلام قال إنى أيست أن يكون لى منها ولد فهب لى من لدنك وليا كيف شئت إما بأن تصلحها فيكون الولد منها أو بأن

تهب لى من غيرها فلما بشر بالغلام سأل أيرزق منها أو من غيرها فأخبر بأنه يرزق منها واختلفوا فى المراد بالميراث على وجوه (أحدها) أن المراد بالميراث فى الموضعين هو وراثة المال وهذا قول ابن عباس والحسن والضحاك (وثانيها) أن المراد به فى الموضعين وراثة النبوة وهو قول أبى صالح (وثالثها) يرثنى المال ويرث من آل يعقوب النبوة وهو قول السدى ومجاهد والشعبى وروى أيضاً عن ابن عباس والحسن والضحاك (ورابعها) يرثنى العلم ويرث من آل يعقوب النبوة وهو مروى عن مجاهد واعلم أن هذه الروايات ترجع إلى أحد أمور خمسة وهى المال ومنصب الحبورة والعلم والنبوة والسيرة الحسنة ولفظ الإرث مستعمل فى كلها أما فى المال فلقوله تعالى (أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم) وأما فى العلم فلقوله تعالى (ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب) وقال عليه السلام « العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورثوا العلم » وقال تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود) وهذا يحتمل وراثة الملك ووراثة النبوة وقد يقال أورثنى هذا غماً وحزناً ، وقد ثبت أن اللفظ محتمل لتلك الوجوه . واحتج من حمل اللفظ على وراثة المال بالخبر والمعقول أما الخبر فقوله عليه السلام « رحم الله زكريا ما كان له من يرثه » وظاهره يدل على أن المراد إرث المال وأما المعقول فمن وجهين (الأول) أن العلم والسيرة والنبوة لا تورث بل لاتحصل إلا بالاكتساب فوجب حمله على المال (الثانى) (أنه قال واجعله رب رضياً) ولو كان المراد من الإرث إرث النبوة لكان قد سأل جعل النبى ﷺ رضياً وهو غير جائز لأن النبى لايكون إلا رضياً معصوما ، وأما قوله عليه السلام «إنا معشر الأنبياء لا نورث ماتركناه صدقة» فهذا لا يمنع أن يكون خاصا به واحتج من حمله على العلم أو المنصب والنبوة بما علم من حال الأنبياء أن اهتمامهم لايشتد بأمر المال كما يشتد بأمر الدين ، وقيل لعله أوتى من الدنيا ماكان عظيم النفع فى الدين فلهذا كان مهتما به أما قوله النبوة كيف تورث قلنا المال إنما يقال ورثه الابن بمعنى قام فيه مقام أبيه وحصل له من فائدة التصرف فيه ماحصل لأبيه وإلا فملك المال من قبل الله لا من قبل المورث فكذلك إذا كان المعلوم فى الإبن أن يصير نبياً بعده فيقوم بأمر الدين بعده جاز أن يقال ورثه أما قوله عليه السلام « إنا معشر الأنبياء» فهذا وإن جاز حمله على الواحد كما فى قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر) لكنه مجاز وحقيقته الجمع والعدول عن الحقيقة من غير موجب لايجوز لاسيما وقد روى قوله «إنا معاشر الأنبياء لانورث» والأولى أن يحمل ذلك على كل مافيه نفع وصلاح فى الدين وذلك يتناول النبوة والعلم والسيرة الحسنة والمنصب النافع فى الدين والمال الصالح ، فان كل هذه الأمور مما يجوز توفر الدواعى على بقائها ليكون ذلك النفع دائما مستمراً (السابع) اتفق أكثر المفسرين على أن يعقوب ههنا هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام لأن زوجة زكرياء هى أخت مريم وكانت من ولد سليمان بن داود من ولد يهوذا بن يعقوب وأما زكرياء

يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

عليه السلام فهو من ولد هرون أخى موسى عليه السلام وهرون وموسى عليهما السلام من ولد لاوى بن يعقوب بن إسحق وكانت النبوة فى سبط يعقوب لأنه هو إسرائيل ﷺ وقال بعض المفسرين ليس المراد من يعقوب ههنا ولد إسحق بن ابراهيم عليه السلام بل يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان وكان آل يعقوب أخوال يحيى بن زكريا. وهذا قول الكلبى ومقاتل. وقال الكلبى كان بنو ماثان رؤوس بنى إسرائيل وملوكهم وكان زكريا رأس الأحبار يومئذ فأراد أن يرثه ولده حبورته ويرث من بنى ماثان ملكهم ، واعلم أنهم ذكروا فى تفسير الرضى وجوهاً (أحدها) أن المراد واجعله رضياً من الأنبياء وذلك لأن كلهم مرضيون فالرضى منهم مفضل على جملتهم فائق لهم فى كثير من أمورهم فاستجاب الله تعالى له ذلك فوهب له سيداً وحصورا ونبياً من الصالحين لم يعص ولم يهم بمعصية ، وهذا غاية ما يكون به المرء رضياً (وثانيها) المراد بالرضى أن يكون رضياً فى أمته لا يتلقى بالتكذيب ولا يواجه بالرد (وثالثها) المراد بالرضى أن لا يكون متهما فى شىء ولا يوجد فيه مطعن ولا ينسب اليه شىء من المعاصى (ورابعها) أن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام قالا فى الدعاء (ربنا واجعلنا مسلمين لك) وكانا فى ذلك الوقت مسلمين ، وكأن المراد هناك ثبتنا على هذا أو المراد اجعلنا فاضلين من أنبيائك المسلمين فكذا ههنا واحتج أصحابنا فى مسألة خلق الأفعال بهذه الآية لأنه إنما يكون رضياً بفعله ، فلما سأل الله تعالى جعله رضيا دل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى . فان قيل المراد منه أن يلطف له بضروب الألطاف فيختار مايصير مرضيا فينسب ذلك الى الله تعالى . والجواب من وجهين (الأول) أن جعله رضياً لو حملناه على جعل الألطاف وعندها يصير المرء باختياره رضيا لكان ذلك مجازاً وهو خلاف الأصل (والثانى) أن جعل تلك الألطاف واجبة على الله تعالى لا يجوز الإخلال به وما كان واجبا لا يجوز طلبه بالدعاء والتضرع .

قوله تعالى : ﴿ يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا فى من المنادى بقوله يازكريا ، فالأكثرون على أنه هو الله تعالى وذلك لأن ماقبل هذه الآية يدل على أن زكريا عليه السلام إنما كان يخاطب الله تعالى ويسأله وهو قوله (رب إنى وهن العظم منى) وقوله (ولم أكن بدعائك رب شقياً) وقوله (فهب لى) وما بعدها يدل على أنه كان يخاطب الله تعالى وهو يقول (رب أنى يكون لى غلام) وإذا كان ماقبل هذه الآية وما بعدها خطابا مع الله تعالى وجب أن يكون النداء من الله تعالى وإلا لفسد النظم ، ومنهم من قال هذا نداء الملك واحتج عليه بوجهين (الأول) قوله تعالى فى سورة آل عمران (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحى) . (الثانى) أن زكريا

عليه السلام لما قال (أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ، قال كذلك قال ربك هو على هين) وهذا لايجوز أن يكون كلام الله فوجب أن يكون كلام الملك (والجواب) عن الأول أنه يحتمل أن يقال حصل النداء ان نداء الله ونداء الملائكة (وعن الثانى) أنا نبين إن شاء الله تعالى أن قوله (قال كذلك قال ربك هو على هين) يمكن أن يكون كلام الله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فان قيل إن كان الدعاء باذن فما معنى البشارة ، وإن كان بغير إذن فلماذا أقدم عليه؟ والجواب هذا أمر يخصه فيجوز أن يسأل بغير إذن ، ويحتمل أنه أذن له فيه ولم يعلم وقته فبشر به .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إختلف المفسرون فى قوله (لم نجعل له من قبل سمياً) على وجهين ؛ (أحدهما) وهو قول ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة أنه لم يسم أحد قبله بهذا الإسم (الثانى) أن المراد بالسمى النظير كما فى قوله (هل تعلم له سمياً) واختلفوا فى ذلك على وجوه (أحدها) أنه سيد وحصور لم يعص ولم يهم بمعصية كأنه جواب لقوله (واجعله رب رضياً) فقيل له إنا نبشرك بغلام لم نجعل له من قبل شبيها فى الدين ، ومن كان هكذا فهو فى غاية الرضا . وهذا الوجه ضعيف لأنه يقتضى تفضيله على الأنبياء الذين كانوا قبله كآدم ونوح وإبراهيم وموسى وذلك باطل بالاتفاق (وثانيها) أن كل الناس إنما يسميهم آباؤهم وأمهاتهم بعد دخولهم فى الوجود . وأما يحيى عليه السلام فان الله تعالى هو الذى سماه قبل دخوله فى الوجود فكان ذلك من خواصه فلم يكن له مثل وشبيه فى هذه الخاصية (وثالثها) أنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر ، واعلم أن الوجه الأول أولى وذلك لأن حمل السمى على النظير وإن كان يفيد المدح والتعظيم ولكنه عدول عن الحقيقة من غير ضرورة وإنه لايجوز ، وأما قول الله تعالى (هل تعلم له سمياً) فهناك إنما عدلنا عن الظاهر لأنه قال (فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً) ومعلوم أن مجرد كونه تعالى مسمى بذلك الإسم لايقتضى وجوب عبادته ، فلهذه العلة عدلنا عن الظاهر ، أما ههنا لاضرورة فى العدول عن الظاهر فوجب اجراؤه عليه ولأن فى تفرده بذلك الإسم ضرباً من التعظيم لأنانشاهد أن الملك إذا كان له لقب مشهور فان حاشيته لايتلقبون به بل يتركونه تعظيماً له فكذلك ههنا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى أنه عليه السلام سمى بيحيى روى الثعلبى فيه وجوها (أحدها) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الله تعالى أحيا به عقر أمه (وثانيها) عن قتادة أن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والطاعة والله تعالى سمى المطيع حياً والعاصى ميتاً بقوله تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه) وقال (إذا دعاكم لما يحييكم) (وثالثها) إحياؤه بالطاعة حتى لم يعص ولم يهم بمعصية لما روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من أحد إلا وقد عصى أو هم إلا يحيى بن زكريا فانه لم يهم ولم يعملها » (ورابعها) عن أبى القاسم بن حبيب أنه استشهد وأن الشهداء أحياء عند ربهم لقوله تعالى (بل أحياء عند ربهم) . (وخامسها) ماقاله

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾

عمرو بن عبد الله المقدسي : أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن قل ليسارة ، وكان اسمها كذلك ، بأني مخرج منها عبداً لايهم بمعصية اسمه حي . فقال هي له من اسمك حرفا فوهبته حرفا من اسمها فصار يحيى وكان اسمها يسارة فصار اسمها سارة (وسادسها) أن يحيى عليه السلام أول من آمن بعيسى فصار قلبه حياً بذلك الإيمان وذلك أن أم يحيى كانت حاملا به فاستقبلتها مريم وقد حملت بعيسى فقالت لها أم يحيى يامريم أحامل أنت ؟ فقالت لماذا تقولين ؟ فقالت إني أرى مافي بطني يسجد لما في بطنك (وسابعها) أن الدين يحيا به لأنه إنما سأله زكريا لأجل الدين ، واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة لأن أسماء الألقاب لايطلب فيها وجه الإشتقاق ، ولهذا قال أهل التحقيق أسماء الألقاب قائمة مقام الاشارات وهي لاتفيد في المسمى صفة البتة .

قوله تعالى : ﴿ قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائي عتياً وصلياً وجثياً وبكياً بكسر العين والصاد والجيم والباء ، وقرأ حفص عن عاصم بكيا بالضم والباقي بالكسر والباقون جميعاً بالضم ، وقرأ ابن مسعود بفتح العين والصاد من عتياً وصلياً . وقرأ أبي بن كعب وابن عباس عسياً بالسين غير المعجمة والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في الألفاظ وهي ثلاثة (الأول) الغلام الانسان الذكر في ابتداء شهوته للجماع ومنه اغتلم إذا اشتدت شهوته للجماع ثم يستعمل في التليذ يقال غلام ثعلب (الثاني) العتي والعسي واحد تقول عتا يعتو عتواً وعتياً فهو عات وعسا يعسو عسواً وعسياً فهو عاس والعاسي هو الذي غيره طول الزمان إلى حال اليؤس وليل عات طويل وقيل شديد الظلمة (الثالث) لم يقل عاقرة لأن ما كان على فاعل من صفة المؤنث مما لم يكن للمذكر فإنه لاتدخل فيه الهاء نحو امرأة عاقر وحائض قال الخليل هذه صفات مذكرة وصف بها المؤنث كما وصفوا المذكر بالمؤنث حين قالوا رجل ملحة وربعة وغلام نفعة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في هذه الآية سؤالان (الأول) أن زكريا عليه السلام لم تعجب بقوله (أنى يكون لى غلام) مع أنه هو الذي طلب الغلام ؟ (السؤال الثاني) أن قوله أنى يكون لى غلام لم يكن هذا مذكوراً بين أمته لأنه كان يخفي هذه الأمور عن أمته فدل على أنه ذكره في نفسه ، وهذا التعجب يدل على كونه شاكا في قدرة الله تعالى على ذلك وذلك كفر وهو غير جائز على الأنبياء عليهم

قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾

السلام (والجواب) عن السؤال الأول أما على قول من قال انه لم يطلب خصوص الولد فالسؤال زائل ،وأما على قول من قال إنه طلب الولد فالجواب عنه أن المقصود من قوله (أنى يكون لى غلام) هو التعجب من أنه تعالى يجعلهما شابين ثم يرزقهما الولد أو يتركهما شيخين ويرزقهما الولد مع الشيخوخة بطريق الاستعلام لا بطريق التعجب ، والدليل عليه قوله تعالى (وزكريا إذ نادى ربه رب لاتذرنى فرداً وأنت خير الوارثين ، فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه) وما هذا الاصلاح إلا أنه أعاد قوة الولادة وقد تقدم تقرير هذا الكلام ، وذكر السدى فى الجواب وجهاً آخر فقال : إنه لما سمع النداء بالبشارة جاءه الشيطان فقال إن هذا الصوت ليس من الله تعالى بل هو من الشيطان يسخر منك ، فلما شك زكريا قال (أنى يكون لى غلام) واعلم أن غرض السدى من هذا أن زكريا عليه السلام لو علم أن المبشر بذلك هو الله تعالى لما جازله أن يقول ذلك فارتكب هذا ، وقال بعض المتكلمين هذا باطل قطعاً إذ لوجوز الأنبياء فى بعض مايرد عن الله تعالى أنه من الشيطان لجوزوا فى سائره ولزالت الثقة عنهم فى الوحى وعنا فيما يوردونه إلينا ويمكن أن يجاب عنه بأن هذا الاحتمال قائم فى أول الأمر وإنما يزول بالمعجزة فلعل المعجزة لم تكن حاصلة فى هذه الصورة فحصل الشك فيها دون ماعداها والله أعلم ، والجواب عن السؤال الثانى من وجوه (الأول) أن قوله(إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى)ليس نصاً فى كون ذلك الغلام ولداً له بل يحتمل ان زكريا عليه السلام راعى الأدب ولم يقل هذا الكلام هل يكون لى ولد أم لا ، بل ذكر أسباب تعذر حصول الولد فى العادة حتى أن تلك البشارة إن كانت بالولد فالله تعالى يزيل الابهام ويجعل الكلام صريحاً فلما ذكر ذلك صرح الله تعالى بكون ذلك الولد منه فكان الغرض من كلام زكريا هذا لا أنه كان شاكا فى قدرة الله تعالى عليه (الثانى) أنه ماذكر ذلك للشك لكن على وجه التعظيم لقدرته وهذا كالرجل الذى يرى صاحبه قد وهب الكثير الخطير فيقول أنى سمحت نفسك باخراج مثل هذا من ملكك ! تعظيما وتعجباً (الثالث) أن من شأن من بشر بما يتمناه أن يتولد له فرط السرور به عند أول مايرد عليه استثبات ذلك الكلام إما لأن شدة فرحه به توجب ذهوله عن مقتضيات العقل والفكر وهذا كما أن امرأة ابراهيم عليه السلام بعد أن بشرت باسحق قالت (أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشىء عجيب) فأزيل تعجبها بقوله (أتعجبين من أمر الله) وإما طلباً للالتذاذ بسماع ذلك الكلام مرة أخرى ، وإما مبالغة فى تأكيد التفسير .

قوله تعالى : ﴿ قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾ وفيه مسائل

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (قال ربك هو هين) وجوه (أحدها) أن الكاف رفع أى الأمر كذلك تصديقاً له ثم ابتدأ قال ربك (وثانيها) نصب يقال وذلك إشارة إلى مبهم تفسيره

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

هو على هين وهو كقوله تعالى (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) (وثالثها) أن المراد لا تعجب فانه كذلك قال ربك لا خلف فى قوله ولا غلط ثم قال بعده هو على هين بدليل خلقتك من قبل ولم تك شيئاً (ورابعها) أنا ذكرنا أن قوله أنى يكون لى غلام معناه تعطينى الغلام بأن تجعلنى وزوجتى شابين أو بأن تتركنا على الشيخوخة ومع ذلك تعطينا الولد ، وقوله (كذلك قال ربك) أى نهب الولد مع بقائك وبقاء زوجتك على الحاصلة فى الحال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ الحسن وهو على هين وهذا لا يخرج إلا على الوجه الأول أى الأمر كما قلت ولكن قال ربك هو مع ذلك على هين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إطلاق لفظ الهين فى حق الله تعالى مجاز لأن ذلك إنما يجوز فى حق من يجوز أن يصعب عليه شىء ولكن المراد أنه إذا أراد شيئاً كان .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى وجه الاستدلال بقوله تعالى (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) فنقول إنه لما خلقه من العدم الصرف والنفى المحض كان قادراً على خلق الذوات والصفات والآثار وأما الآن فخلق الولد من الشيخ والشيخة لا يحتاج فيه إلا إلى تبديل الصفات والقادر على خلق الذوات والصفات والآثار معاً أولى أن يكون قادراً على تبديل الصفات وإذا أوجده عن عدم فكذا يرزقه الولد بأن يعيد إليه وإلى صاحبته القوة التى عنها يتولد الماءان اللذان من اجتماعهما يخلق الولد ولذلك قال (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه) فهذا وجه الاستدلال .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الجمهور على أن قوله قال كذلك قال ربك يقتضى أن القائل لذلك ملك مع الاعتراف بأن قوله (يازكريا إنا نبشرك) قول الله تعالى وقوله (هو على هين) قول الله تعالى وهذا بعيد لأنه إذا كان ماقبل هذا الكلام وما بعده قول الله تعالى فكيف يصح إدراج هذه الألفاظ فيما بين هذين القولين ، والأولى أن يقال قائل هذا القول أيضاً هو الله تعالى كما أن الملك العظيم إذا وعد عبده شيئاً عظيماً فيقول العبد من أين يحصل لى هذا فيقول إن سلطانك ضمن لك ذلك كأنه ينبه بذلك على أن كونه سلطاناً مما يوجب عليه الوفاء بالوعد فكذا ههنا .

قوله تعالى : ﴿ قال رب اجعل لى آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال بعضهم طلب الآية لتحقيق البشارة وهذا بعيد لأن بقول الله تعالى قد تحققت البشارة فلا يكون إظهار الآية أقوى فى ذلك من صريح القول وقال آخرون البشارة بالولد وقعت مطلقة فلا يعرف وقتها بمجرد البشارة فطلب الآية ليعرف بها وقت الوقوع وهذا هو الحق .

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ اتفقوا على أن تلك الآية هى تعذر الكلام عليه فان مجرد السكوت مع القدرة على الكلام لا يكون معجزة ثم اختلفوا على قولين : (أحدهما) أنه اعتقل لسانه أصلا (والثانى) أنه امتنع عليه الكلام مع القوم على وجه المخاطبة مع أنه كان متمكناً من ذكر الله ومن قراءة التوراة وهذا القول عندى أصح لأن اعتقال اللسان مطلقاً قد يكون لمرض وقد يكون من فعل الله فلا يعرف زكريا عليه السلام أن ذلك الاعتقال معجزاً إلا إذا عرف أنه ليس لمرض بل لمحض فعل الله تعالى مع سلامة الآلات وهذا مما لا يعرف إلا بدليل آخر فتفتقر تلك الدلالة إلى دلالة أخرى ، أما لو اعتقل لسانه عن الكلام مع القوم مع اقتداره على التكلم بذكر الله تعالى وقراءة التوراة علم بالضرورة أن ذلك الاعتقال ليس لعلة ومرض بل هو لمحض فعل الله فيتحقق كونه آية ومعجزة ومما يقوى ذلك قوله تعالى (آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً) خص ذلك بالتكلم مع الناس وهذا يدل بطريق المفهوم أنه كان قادراً على التكلم مع غير الناس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى معنى (سوياً) فقال بعضهم هو صفة لليالى الثلاث وقال أكثر المفسرين هو صفة لزكريا والمعنى : آيتك أن لا تكلم الناس فى هذه المدة مع كونك سوياً لم يحدث بك مرض .

قوله تعالى : ﴿ فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشياً ﴾ وفيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله تعالى (فخرج على قومه من المحراب) قيل كان له موضع ينفرد فيه بالصلاة والعباد ثم ينتقل إلى قومه فعند ذلك أوحى اليهم ، وقيل كان موضعاً يصلى فيه هو وغيره إلا أنهم كانوا لايدخلونه للصلاة إلا باذنه وانهم اجتمعوا ينتظرون خروجه للاذن فخرج اليهم وهو لايتكلم فأوحى اليهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لا يجوز أن يكون المراد من قوله أوحى اليهم الكلام لأن الكلام كان ممتنعاً عليه فكان المراد غير الكلام وهو أن يعرفهم ذلك إما بالاشارة أو برمز مخصوص أو بكتابة لأن كل ذلك يفهم منه المراد فعلموا أنه قد كان ما بشر به فكما حصل السرور له حصل لهم فظهر لهم إكرام الله تعالى له بالاجابة ، واعلم أن الأشبه بالآية هو الاشارة لقوله تعالى فى سورة آل عمران (ثلاثة أيام إلا رمزاً) والرمز لايكون كناية للكلام .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اتفق المفسرون على أنه أراد بالتسبيح الصلاة وهو جائز فى اللغة يقال سبحة الضحى أي صلاة الضحى وعن عائشة رضى الله عنها فى صلاة الضحى «إنى لأسبحها» أى لأصليها إذا ثبت هذا فنقول روى عن أبى العالية أن البكرة صلاة الفجر والعشى صلاة العصر

يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾

ويحتمل أن يكون إنما كانوا يصلون معه فى محرابه هاتين الصلاتين فكان يخرج إليهم فيأذن لهم بلسانه ، فلما اعتقل لسانه خرج اليهم كعادته فأذن لهم بغير كلام والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً ، وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا ، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾

اعلم أنه تعالى وصف (يحيى) فى هذه الآية بصفات تسع : (الصفة الأولى) كونه مخاطباً من الله تعالى بقوله (يايحيى خذ الكتاب بقوة) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن قوله (يايحيى خذ الكتاب) يدل على أن الله تعالى بلغ يحيى المبلغ الذى يجوز أن يخاطبه بذلك فحذف ذكره لدلالة الكلام عليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الكتاب المذكور يحتمل أن يكون هو التوراة التى هى نعمة الله على بنى إسرائيل لقوله تعالى (ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة) ويحتمل أن يكون كتاباً خص الله به يحيى كما خص الله تعالى الكثير من الأنبياء بذلك والأول أولى لأن حمل الكلام ههنا على المعهود السابق أولى ولا معهود ههنا إلا التوراة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (بقوة) ليس المراد منه القدرة على الأخذ لأن ذلك معلوم لكل أحد فيجب حمله على معنى يفيد المدح وهو الجد والصبر على القيام بأمر النبوة وحاصلها يرجع الى حصول ملكة تقتضى سهولة الإقدام على المأمور به والإحجام عن المنهى عنه (الصفة الثانية) قوله تعالى (وآتيناه الحكم صبياً) اعلم أن فى الحكم أقوالا (الأول) أنه الحكمة ومنه قول الشاعر :

وأحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت إلى حمام سراع وارد الثمد

وهو الفهم فى التوراة والفقه فى الدين و (الثانى) وهو قول معمر أنه العقل روى أنه قال ماللعب خلقنا (والثالث) أنه النبوة فان الله تعالى أحكم عقله فى صباه وأوحى اليه وذلك لأن الله تعالى بعث يحيى وعيسى عليهما السلام وهما صبيان لا كما بعث موسى ومحمداً عليهما السلام ، وقد بلغا الأشد والأقرب حمله على النبوة لوجهين : (الاول) أن الله تعالى ذكر فى هذه الآية صفات شرفه ومنقبته ومعلوم أن النبوة أشرف صفات الإنسان فذكرها فى معرض المدح أولى من ذكر غيرها فوجب أن تكون نبوته مذكورة فى هذه الآية ولا لفظ يصلح للدلالة على النبوة إلا هذه

اللفظة فوجب حملها عليها (الثانى) أن الحكم هو مايصلح لأن يحكم به على غيره ولغيره على الاطلاق وذلك لايكون إلا بالنبوة فان قيل كيف يعقل حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا ؟ قلنا هذا السائل ، إما أن يمنع من خرق العادة أو لا يمنع منه ، فان منع منه فقد سد باب النبوات لأن بناء الأمر فيها على المعجزات ولا معنى لها إلا خرق العادات ، وإن لم يمنع فقد زال هذا الاستبعاد فانه ليس استبعاد صيرورة الصبي عاقلا أشد من استبعاد انشقاق القمر وانفلاق البحر (الصفة الثالثة) قوله تعالى (وحناناً من لدنا) اعلم أن الحنان أصله من الحنين وهو الارتياح والجزع للفراق كما يقال حنين الناقة وهو صوتها إذا اشتاقت إلى ولدها ذكر الخليل ذلك وفى الحديث « أنه عليه السلام كان يصلى إلى جذع فى المسجد فلما اتخذ له المنبر وتحول اليه حنت تلك الخشبة حتى سمع حنينها» فهذا هو الاصل ثم قيل تحنن فلان على فلان إذا تعطف عليه ورحمه ، وقد اختلف الناس فى وصف الله بالحنان فأجازه بعضهم ، وجعله بمعنى الرؤوف الرحيم ، ومنهم من أباه لما يرجع اليه أصل الكلمة قالوا لم يصح الخبر بهذه اللفظة فى أسماء الله تعالى ، إذا عرفت هذا فنقول : الحنان هنا فيه وجهان (أحدهما) أن يجعل صفة لله (وثانيهما) أن يجعل صفة ليحيى أما إذا جعلناه صفة لله تعالى فنقول : التقدير وآتيناه الحكم حناناً أى رحمة منا ، ثم ههنا احتمالات (الأول) أن يكون الحنان من الله ليحيى ، المعنى آتيناه الحكم صبياً ، ثم قال (وحناناً من لدنا) أى إنما آتيناه الحكم صبياً حناناً من لدنا عليه أى رحمة عليه وزكاة أى وتزكية له وتشريفاً له (الثانى) أن يكون الحنان من الله تعالى لزكريا عليه السلام فكأنه تعالى قال إنما استجبنا لزكريا دعوته بأن أعطيناه ولداً ثم آتيناه الحكم صبيا وحناناً من لدنا عليه أى على زكريا فعلنا ذلك (وزكاة) أى وتزكية له عن أن يصير مردود الدعاء (والثالث) أن يكون الحنان من الله تعالى لأمة يحيى عليه السلام كأنه تعالى قال (وآتيناه الحكم صبياً وحناناً) منا على أمته لعظيم انتفاعهم بهدايته وإرشاده ، أما إذا جعلناه صفة ليحيى عليه السلام ففيه وجوه (الأول) آتيناه الحكم والحنان على عبادنا أى التعطف عليهم وحسن النظر على كافتهم فيما أوليه من الحكم عليهم كما وصف نبيه فقال (فبما رحمة من الله لنت لهم) وقال (حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) ثم أخبر تعالى أنه آتاه زكاة ، ومعناه أن لا تكون شفقته داعية له إلى الإخلال بالواجب لأن الرأفة واللين ربما أورثا ترك الواجب ألا ترى الى قوله تعالى (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) وقال (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) وقال (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) فالمعنى إنما جعلنا له التعطف على عباد الله مع الطهارة عن الإخلال بالواجبات ، ويحتمل آتيناه التعطف على الخلق والطهارة عن المعاصى فلم يعص ولم يهم بمعصية ، وفى الآية وجه آخر وهو المنقول عن عطاء بن أبى رباح (وحناناً من لدنا) والمعنى آتيناه الحكم صبياً تعظيما إذ جعلناه نبياً وهو صبى ولا تعظيم أكثر من هذا والدليل عليه ماروى أنه مر ورقة ابن

نوفل على بلال وهو يعذب قد ألصق ظهره برمضاء البطحاء ، ويقول : أحد أحد فقال والذى نفسى بيده لئن قتلتموه لأتخذنه حناناً أى معظما . (الصفة الرابعة) قوله (وزكاة) وفيه وجوه (أحدها) أن المراد وآتيناه زكاة أى عملا صالحاً زكياً ، عن ابن عباس وقتادة والضحاك وابن جريج و(ثانيها) زكاة لمن قبل منه حتى يكونوا أزكياء عن الحسن (وثالثها) زكيناه بحسن الثناء كما تزكى الشهود الإنسان (ورابعها) صدقة تصدق الله بها على أبويه عن الكلبي (وخامسها) بركة ونماء وهو الذى قال عيسى عليه الصلاة والسلام (وجعلنى مباركا أينما كنت) واعلم أن هذا يدل على أن فعل العبد خلق لله تعالى لأنه جعل طهارته وزكاته من الله تعالى وحمله على الألطاف بعيد لأنه عدول عن الظاهر (الصفة الخامسة) قوله (وكان تقياً) وقد عرفت معناه وبالجملة فانه يتضمن غاية المدائح لأنه هو الذى يتقى نهى الله فيجتنبه ويتقى أمره فلا يهمله ، وأولى الناس بهذا الوصف من لم يعص الله ولا يهم بمعصية وكان يحيى عليه الصلاة والسلام كذلك ، فان قيل مامعنى (وكان تقياً) وهذا حين ابتداء تكليفه قلنا إنما خاطب الله تعالى بذلك الرسول وأخبر عن حاله حيث كان كما أخبر عن نعم الله عليه (الصفة السادسة) قوله (وبراً بوالديه) وذلك لأنه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى مثل تعظيم الوالدين ، ولهذا السبب قال (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) . (الصفة السابعة) قوله (ولم يكن جباراً) والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب وذلك من صفات المؤمنين كقوله تعالى (واخفض جناحك للمؤمنين) وقال تعالى (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) ولأن رأس العبادات معرفة الإنسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال ومن عرف نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به الترفع والتجبر ، ولذلك فان إبليس لما تجبر وتمرد صار مبعداً عن رحمة الله تعالى وعن الدين وقيل الجبار هو الذى لا يرى لأحد على نفسه حقاً وهو من العظم والذهاب بنفسه عن أن يلزمه قضاء حق أحد ، وقال سفيان في قوله (جباراً عصياً) إنه الذى يقبل على الغضب والدليل عليه قوله تعالى (أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض) وقيل كل من عاقب على غضب نفسه من غير حق فهو جبار لقوله تعالى (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) . (الصفة الثامنة) قوله (عصياً) وهو أبلغ من العاصى كما أن العليم أبلغ من العالم (الصفة التاسعة) قوله (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) وفيه أقوال (أحدها) قال محمد بن جرير الطبرى (وسلام عليه) أى أمان من الله يوم ولد من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بنى آدم (ويوم يموت) أى وأمان عليه من عذاب القبر (ويوم يبعث حياً) أى ومن عذاب القيامة (وثانيها) قال سفيان بن عيينة أوحش ما يكون الخلق فى ثلاثة مواطن يوم يولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه ، ويوم يموت فيرى قوما ماشاهدهم قط ، ويوم يبعث فيرى نفسه فى محشر عظيم فأكرم الله يحيى عليه الصلاة والسلام فخصه بالسلام عليه فى هذه المواطن الثلاثة (وثالثها) قال عبد الله بن نفطويه (وسلام عليه يوم ولد) أى أول مايرى الدنيا (ويوم

يموت) أى أول يوم يرى فيه أول أمر الآخرة (ويوم يبعث حياً) أى أول يوم يرى فيه الجنة والنار وهو يوم القيامة ، وإنما قال (حياً) تنبيها على كونه من الشهداء لقوله تعالى (بل أحياء عند ربهم يرزقون) (فروع) الأول هذا السلام يمكن أن يكون من الله تعالى وأن يكون من الملائكة وعلى التقديرين فدلالة شرفه وفضله لاتختلف لأن الملائكة لايسلمون إلا عن أمر الله تعالى (الثانى) ليحيي مزية فى هذا السلام على ما لسائر الأنبياء عليهم السلام كقوله (سلام على نوح فى العالمين ، سلام على إبراهيم) لأنه قال (ويوم ولد) وليس ذلك لسائر الأنبياء عليهم السلام (الثالث) روى أن عيسى عليه السلام قال ليحيي عليه السلام : أنت أفضل منى لأن الله تعالى سلم عليك وأنا سلمت على نفسى ، وهذا ليس يقوى لأن سلام عيسى على نفسه يجرى مجرى سلام الله على يحيي لأن عيسى معصوم لا يفعل إلا ما أمره الله به (الرابع) السلام عليه يوم ولد لا بد وأن يكون تفضلا من الله تعالى لأنه لم يتقدم منه ما يكون ذلك جزاء له ، وأما السلام عليه يوم يموت ويوم يبعث فى المحشر ، فقد يجوز أن يكون ثواباً كالمدح والتعظيم والله تعالى اعلم . القول فى فوائد هذه القصة (الفائدة الاولى) تعليم آداب الدعاء وهى من جهات (أحدها) قوله (نداء خفياً) وهو يدل على أن أفضل الدعاء ماهذا حاله ويؤكد قوله تعالى (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) ولأن رفع الصوت مشعر بالقوة والجلادة وإخفاء الصوت مشعر بالضعف والانكسار وعمدة الدعاء الانكسار والتبرى عن حول النفس وقوتها والاعتماد على فضل الله تعالى وإحسانه (وثانيها) أن المستحب أن يذكر فى مقدمة الدعاء عجز النفس وضعفها كما فى قوله تعالى عنه (وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً) ثم يذكر كثرة نعم الله على مافى قوله (ولم أكن بدعائك رب شقيا) (وثالثها) أن يكون الدعاء لأجل شىء متعلق بالدين لا لمحض الدنيا كما قال (وإنى خفت الموالى من ورائى) (ورابعها) أن يكون الدعاء بلفظ يارب على مافى هذا الموضع (الفائدة الثانية) ظهور درجات زكريا ويحيي عليهما السلام أما زكريا فأمور (أحدها) نهاية تضرعه فى نفسه وانقطاعه إلى الله تعالى بالكلية (وثانيها) إجابة الله تعالى دعاءه (وثالثها) أن الله تعالى ناداه وبشره أو الملائكة أو حصل الأمران معاً (ورابعها) اعتقال لسانه عن الكلام دون التسبيح (وخامسها) انه يجوز للأنبياء عليهم السلام طلب الآيات لقوله رب اجعل لى آية (الفائدة الثالثة) كونه تعالى قادراً على خلق الولد وإن كان الأبوان فى نهاية الشيخوخة رداً على أهل الطبائع (الفائدة الرابعة) صحة الاستدلال فى الدين لقوله تعالى (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) (الفائدة الخامسة) أن المعدوم ليس بشىء والآية نص فى ذلك فان قيل المراد ولم تك شيئاً مذكوراً كما فى قوله تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) قلنا الإضمار خلاف الأصل وللخصم أن يقول الآية تدل على أن الإنسان لم يكن شيئاً ونحن نقول به لأن الإنسان عبارة عن جواهر متألفة قامت بها أعراض مخصوصة والجواهر المتألفة الموصوفة بالأعراض المخصوصة

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾

غير ثابتة فى العدم إنما الثابت هو أعيان تلك الجواهر مفردة غير مركبة وهى ليست بانسان فظهر أن الآية لا دلالة فيها على المطلوب (الفائدة السادسة) أن الله تعالى ذكر هذه القصة فى سورة آل عمران وذكرها فى هذا الموضع فلنعتبر حالها فى الموضعين فنقول (الأول) أنه تعالى بين فى هذه السورة أنه دعا ربه ولم يبين الوقت وبينه فى آل عمران بقوله (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة) والمعنى أن زكريا عليه السلام لما رأى خرق العادة فى حق مريم عليها السلام طمع فيه فى حق نفسه فدعا (الثانى) وهو أن الله تعالى صرح فى آل عمران بأن المنادى هو الملائكة لقوله (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب) وفى هذه السورة الأظهر أن المنادى بقوله (يازكريا إنا نبشرك) هو الله تعالى وقد بينا أنه لامنافاة بين الأمرين (الثالث) أنه قال فى آل عمران (أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر) فذكر أولا كبر نفسه ثم عقر المرأة وهو فى هذه السورة قال (أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً) وجوابه أن الواو لا تقتضى الترتيب (الرابع) قال فى آل عمران (وقد بلغنى الكبر) وقال ههنا وقد بلغت من الكبر وجوابه أن مابلغك فقد بلغته (الخامس) قال فى آل عمران (آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً) وقال ههنا (ثلاث ليال سوياً) وجوابه دلت الآيتان على ان المراد ثلاثة أيام بلياليهن والله أعلم ﴿ القصة الثانية ﴾ قصة مريم وكيفية ولادة عيسى عليه السلام اعلم أنه تعالى إنما قدم قصة يحيى على قصة عيسى عليهما السلام لأن خلق الولد من شيخين فانيين أقرب إلى مناهج العادات من تخليق الولد لا من الأب البتة وأحسن الطرق فى التعليم والتفهيم الأخذ من الأقرب فالأقرب مترقياً إلى الأصعب فالأصعب .

قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إذ بدل من مريم بدل اشتمال لأن الأحيان مشتملة على مافيها وفيه أن المقصود بذكر مريم ذكر وقت هذا الوقوع لهذه القصة العجيبة فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ النبذ أصله الطرح والإلقاء والإنتباذ افتعال منه ومنه (فنبذوه وراء ظهورهم) وانتبذت تنحت يقال جلس نبذة من الناس ونبذة بضم النون وفتحها أى ناحية وهذا إذا جلس قريباً منك حتى لو نبذت إليه شيئاً وصل إليه ونبذت الشيء رميته ومنه النبيذ لأنه يطرح فى الإناء